حياة الصلاة والحياة الرهبانيّة
أمام تحدّيات الواقع اللبنانيّ في أيّامنا

الأب أوليفر بُرْج أوليڤييه اليسوعيّ*

القسم الأوّل: الصلاة[1]

لا تقوم الصلاة بوجه خاصّ على كلمات نقولها أو ممارسات نتقيّد بها إلى حدّ كبير أو صغير. في اللغة العربيّة، نُطلق على رتبة «صلاة الساعات» تسمية «الفرض»، وهي تعني أمرًا مفروضًا وواجبًا. لكنّي أتمنّى أن لا يُنظَر إلى الصلاة كإلى أمرٍ مفروض وواجب، فإنّها، في نظري، وبوجه خاصّ، علاقة بين شخصَين، لا بل هناك أكثر من ذلك، فإنّ علاقة الحبّ بين شخصين لا يمكن أن تبقى أبدًا منغلقة عليهما، بل تفتحهما دائمًا على الآخَر. فالمقصود هنا إذًا هو علاقة واعية بين أشخاص. نحن نعيش كثيرًا من العلاقات، ونلتقي كثيرًا من الأشخاص، في حياتنا اليوميّة، منهم الخبّاز، والشخص الذي يبيعنا الجريدة، وحارس البناية

(*) Oliver Borg Olivier أستاذ في المعهد العالي للعلوم الدينيّة، جامعة القدّيس يوسف، بيروت. - المقال محاضرة ألقاها الكاتب أمام جمهور من الراهبات والرهبان العاملين في لبنان، تاريخ ٥ شباط (فبراير) ٢٠٠٠، لمناسبة يوم الحياة المكرّسة.

(١) أستوحي إلى حدّ ما ممّا كتبتُه في أحد مؤلّفاتي، وبوجه أدقّ في القسم الثاني من الإرشاد الروحيّ والحياة بالروح، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦، ومن كتاب للأب لُوف (Louf)، وهو راهب سِسترسيّ، *Au gré de la grâce*, Editions DDB, Paris.

إلخ. لكن كثيرًا من هذه العلاقات ليست واعية، أي أنّها لقاءات عابرة خالية من العمق. أمّا الصلاة فهي، في نظري، علاقة عميقة وواعية بين أشخاص، وهي بهذه الصفة، كما يقول أندريه لوف، حدث. وإن بحثنا في المعجم عن كلمة «حدث»، وجدنا هذا التحديد: ما يحصل، ما ينتج، ما يظهر. إنّه واقعة هامّة تترك أثرًا. لا يمكننا أن نعيش علاقات عميقة وواعية بين أشخاص من دون أن نتأثّر بها، من دون أن يحدث لنا شيء ما، من دون أن يظهر شيء ما من الآخَر ومنّا. فهناك اكتشاف في كلّ مرّة.

حين نتحدّث عن «علاقة بين أشخاص»، لا نقصد عملًا ما، بقدر ما نشير إلى موقف، إلى نهج، إلى موقف أمانة، إلى موقف انفتاح واستقبال، علمًا بأنّ الانفتاح يعني السلبيّة الفاعلة، فإنّي أدع الآخَر يأتي وأستقبله. وبهذا المعنى، أقصد أنّ الفاعل هو الآخَر، لكنّ الذي يستقبله هو أنا. فلست إذًا في سلبيّة تامّة، بل في سلبيّة فاعلة. والصلاة هي هذا، أي أن نُحسن الانفتاح على الله وعلى الآخرين في الله، وأن نُحسن استقبالهم كآخَر. وليس ذلك أمرًا سهلًا لأنّه يتطلّب وقتًا.

تعني «الأمانة» أن نقضي وقتًا «مع»، وأن نَثبت، ممّا يقتضي منّا الصبر، لا بل كثيرًا من الصبر. لا يمكن أن يكون عندنا حياة روحيّة، إن كنّا قليلي الصبر، إن كُنّا لا نعرف أن ننتظر. فلا نستطيع أن نُقيم علاقات حقيقيّة، إن لم نعرف أن نكون صبورين مع أنفسنا ومع الآخرين. وهذا ما نتعلّمه في الصلاة.

ويعني الانفتاح أن ننتبه إلى الآخَر، أن نكون في حالة انتظار الآخَر بمحبّة. ففي مثل «العذارى العشر»، هناك اللواتي يقدرن على الانتظار، إن أبطأ الحبيب، لأنّ رغبةً عميقة تدفعهنّ. فالصلاة ليست تمرينًا، مع كلّ احترامي للقدّيس إغناطيوس. لا شكّ أنّه من واجبنا أن نتمرّن، لأنّ الصبر لا يُحصَل عليه عفويًّا. فالإصغاء والانتظار ليس هما موهبة طبيعيّة، بل نكتسبهما عن طريق التمرين. لكنّ الصلاة ليست هي تمرينًا، بل نستعين بالتمرين للدخول في الصلاة. فالصلاة هي روح وديناميّة في الحياة. تُروى

قصّة شابّ ياباني نال العديد من شهادات الدكتوراه: دكتوراه في الرياضيّات، في التكنولوجيّة، في علم النفس إلخ. فكان يجمع شهادات الدكتوراه، كما أنّ هناك أناسًا يجمعون الطوابع، فيشعر بأنّه عالم كبير وذو شأن. وفي أحد الأيّام، حدّثه أحدهم عن الصلاة. فسأل: «الصلاة؟ ما هي؟ ما سمعتُ قطّ شيئًا عنها». وشعر بأنّ هناك شيئًا ينقصه، فتقرّر أن يحصل على دكتوراه في الصلاة. وسأل إذًا محاوره: مَن هو الذي يستطيع أن يعلّمني إيّاها على أفضل وجه؟». فدلّه على أحد المتوحّدين المقيمين في الجبل كان رجل صلاة بكلّ معنى الكلمة. فقصده صاحبنا وسأله أن يعلّمه كيف يجب أن يصلّي. فقال له المتوحّد: «تعالَ معي». فذهب به إلى ضفّة النهر وقال له: «إنزل إلى الماء». فخضع الشابّ. ثمّ وضع المتوحّد رأس الشابّ تحت الماء وحفظه فيه بعض الوقت. وكان الشابّ يتخبّط، وحين توصّل مُنهَكًا إلى إخراجه وإلى التنفّس، دفعه المتوحّد مرّة أخرى إلى تحت الماء. وكرّر ذلك ثلاث مرّات. وبعد المرّة الثالثة، قال له الشابّ: «أتريد أن تقتلني؟ أولستَ تعلم بأنّي في حاجة إلى التنفّس؟». أجابه المتوحّد: «أتُرى أحدًا قد علّمك أن تتنفّس؟ ومع ذلك، لا تستطيع أن تعيش من دون ذلك. فما من أحد يستطيع أن يعلّمك كيف تصلّي. عليك أنت أن تبدأ وأن تنفتح. عندئذ تكتشف أنّ القدرة على الصلاة هي فيك، كالتنفّس». إنّ الصلاة هي روح وموقف أساسيّ وديناميّة فينا، نحتاج إلى أن نكتشفها وندَعَها تصعد.

حَدَث يقلب الحياة رأسًا على عقب

لكنّ ذلك الحدث هو مخاطرة، لأنّ الانفتاح على الآخَر يعني تمكينه من قلْب حياتنا رأسًا على عقب. لا نرفض أن ننفتح على الآخر، ولكن بتحديد مواعيده ونمط اللقاء وما سنعمله في هذا اللقاء وكيف يجب عليه أن يكون معنا إلخ. هناك العديد من العلاقات بين الأشخاص تنتهي حين نصرخ: «لقد خانني، لقد خيّب أملي»، لأنّ الآخَر لم يقبل أن يكون معي كما كنت أريد أن يكون. والحال أنّ الله أيضًا لا يقبل أن نضعه في أُطُر ثابتة، وأن نحدّد له كيف يجب عليه أن يتصرّف مع محاوريه. حين

أراد داود أن يبني له هيكلًا، بيتًا لله، أفهمه الله أنّه غير مطلوب منه أن يبني له بيتًا. فإنّ الله هو الذي يختار مكان سكناه، وهو إله سانح يفضّل الخيمة على المنزل. ويدعونا إلى تنضيل الخيمة نحن أيضًا، أي إلى التنقّل وإلى القبول بالتنقّل. يدعونا ليذهب بنا إلى مكان عدم الاطمئنان. وهذا لا يكون بلا مشقّة، فإنّ القبول بأن نبقى أوّلًا في عدم الاطمئنان هو أمر يُخيفنا. ولذلك نتمسّك بكلّ شيء هربًا من الشعور بعدم الاطمئنان هذا، فنبحث عن أسباب الأمان. وبعد ذلك، نكتشف في الصلاة أنّها أسباب أمان باطلة، فيسحبها الله منّا شيئًا فشيئًا.

أحبُّ كثيرًا قصّة إبراهيم، حين قال الله له منذ البداية: «إنطلق من أرضك وعشيرتك وبيت أبيك، إلى الأرض التي أريك». ليس في هذه الجملة أيّ سبب أمان! عليه أن يترك كلّ شيء، بحثًا عن أيّ شيء! بحثًا عن شيء لا يعرفه، وفي اتّجاه لا يزال غير واضح، إلّا هذه العبارة: «الأرض التي أريك»، ومع ذلك نرى إبراهيم ينطلق. ولكن أمعِنوا في قراءة الكتاب المقدّس، لأنّه يعرض علينا إبراهيمًا إنسانيًّا إلى حدّ بعيد ويبدو لنا قريبًا منّا جدًّا. إصطحب إبراهيم امرأته، وبما أنّه لم يُنجب ابنًا وأنّه يريد أن يضمن لنفسه المستقبل، فقد اصطحب ابن أخيه، إلى جانب عبيده وإماته ومواشيه وأمواله. في الحقيقة، غادر بيته، بيتًا من حجر، إن صحّ أنّه كان يملك بيتًا من حجر، وإن لم يكن من الرحّل. فلا شكّ أنّه ترك عشيرته، وهذا ليس بقليل، وترك وطنه، وهذا أيضًا ليس بقليل، علمًا بأنّ كلّ ذلك كان يُشعره بالتملُّك. ولكنّه حمل معه كثيرًا من الاطمئنان. إلّا أنّ الله نزع منه شيئًا فشيئًا كلّ ذلك، لا بل طلب منه أن يضحّي بابنه إسحق أيضًا، بابنه الوحيد، الذي يحبّه، ففي الصلاة، نكتشف أنّ انفتاحنا على الله وقبولنا بأن ننطلق (حين يدعونا الله، يقول لنا دائمًا: قم. واذهب»!) يعنيان أن نقبل بأن ينزع الله منّا أسباب آمالنا الباطلة.

من الانبساط إلى الطريق المسدود

في بدء حياة الصلاة، يُنعم الله علينا بالانبساط، ويشجّعنا، لأنّنا في حاجة إلى ذلك. وفي بدء الحياة، يحتاج الولد إلى الكثير من الحماية

والتشجيع والانبساط. وبعد ذلك، كلّما كبر، احتاج إلى أن يتعلّم كيف يواجه المصاعب. ونحن أيضًا، كلّما تقدّمنا في حياة الصلاة، يحملنا الروح القدس إلى البرّيّة، إلى اختبار الجفاف والصعوبة. فنختبر هناك الضعف والطريق المسدود. في البداية، اختبرنا النجاح في الصلاة، اختبرنا مشاعر الفرح والانبساط، واعتقدنا أنّ ذلك أتانا بفضل أساليب الصلاة وفنونها. وفي أيّامنا، هناك فيض من هذه الفنون. في الحقيقة، لم يَخلُ الماضي منها، لكنّنا نجد اليوم فيضًا من الكتب والدروس التي تشرح لنا وتعلّمنا التنفّس والتأمّل عن طريق التخيّل الموجَّه والتأمّل التجاوزيّ والمشاهدة وقراءة كلمة الله وصلاة يسوع. عندنا الكثير من كلّ ذلك ولا بدّ منه، لأنّه يساعدنا وهو جزء من تقليد الكنيسة، ولكنّه ليس من الصلاة. ففي يوم من الأيّام، نكتشف، بنعمة من الله، أنّه يجب علينا أن ننتقل من صلاتنا إلى صلاته التي هي فوق كلّ فنّ. فإنّه يدعونا إلى الذهاب حتّى الصميم، حتّى أعماق حقيقتنا، حتّى أعماق روحنا. قال القدّيس أوغسطينس: «في أعماق كياني وجدتُك»، حيث يتلاقى روحنا وروح الله، ذلك الروح القدس الذي يجعلنا نهتف «أبّا! يا أبتاه».

حين يبدو أنّ الأمور لا تسير على ما يُرام في ممارسة صلاتنا، لا يبقى لنا إلّا الصراخ: «من الأعماق صرخت إليك يا ربّ»، كما ورد في المزمور، لأنّ هذا الفراغ، وهذا الشعور بالضعف يحملاننا إلى أعماقٍ تدوّخنا. أمّا في اختبار الطريق المسدود، فإنّنا نشعر حقًّا بالسقوط في هاوية فندوخ. وهنا عندئذ ينطلق الصراخ، وهو صراخ على جانب كبير من الأهمّيّة. فلا نَنسَ أنّ أوّل حركة في حياة كلّ منّا كانت صراخًا. وهذا الصراخ لا بدّ منه على الإطلاق، لأنّه ينقذنا من الموت ويهب لنا الحياة: يفتح رئتَينا ويمكّننا إذًا من التنفّس. وهذا ما يجري في ممارسة الصلاة، فإنّها تفتحنا على أوّل صراخ من الروح القدس فينا. ولكن يُخشى أن نهرب من هذا العذاب ونقع في النزعة النشاطيّة. إنّنا لا نصبر على البقاء في هذا الضعف، لأنّ ذلك لا يتمّ بلا مشقّة، وهو أمر مُذلّ، لا سيّما إن اختبرناه بعد قضاء سنين طويلة في الحياة الرهبانيّة: «لقد دَرَّبت أشخاصًا

غيري وعلّمتهم الصلاة، والآن أمسيت أنا نفسي غير قادر على الصلاة». هذا أصعب من أن نقبل به، فنهرب ونلتجئ إلى العاطفيّة أو إلى النزعة النشاطيّة، لا يهمّ، لأنّ ما يهمّنا هو الهرب، مع أنّ الحلّ هو في البقاء والانتظار. تألّم يسوع في بستان الزيتون ولم يعد يفهم: «يا أبتِ، إذا أمكن أن تبتعد عنّي هذه الكأس». ولكن ليس هناك طريق غير شُرب الكأس. وإلى جانبه نجد التلاميذ الذين طلب إليهم أن يصلّوا معه، لكنّ المحنة كانت، بالنسبة إليهم، فوق طاقتهم، ففضّلوا النوم. فضّلوا النوم الذي يجعلهم لا يرون المشكلة بعد الآن، لكنّ المشكلة بقيت كلّها. صلّى يسوع في البستان: «يا أبتِ، إن أمكن أن تبتعد عنّي هذه الكأس»، ولا أظنّ أنّه صلّى بصوت ضعيف وخجول وهادئ. لم يكن يسوع هادئًا ولا خجولًا، بل كان يعرف أن يصرخ وكان قادرًا على العذاب، فأظنّ أنّه صرخ هذه الصلاة. وكان في هذا الصراخ عذاب وقلق حقيقيّ. وعلى الصليب، اتّخذ ذلك شكلًا آخر: «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟». إنّه صراخ يخرج من عمق كيانه، وهو صراخ يعبّر عن القلق، ولكنّه أيضًا صراخ ملؤه الثقة والمحبّة: «بين يديك، أسلِم روحي».

الصراخ فعل محبّة وثقة

إنّ الصراخ هو في حدّ ذاته انفتاح على الآخَر، واعتراف بوجود الآخَر، وإلّا فلماذا أصرخ إن لم يكن هناك مَن يسمعني؟ إنّه في حدّ ذاته فعل محبّة وثقة. قرأتُ كتيّبًا ممتازًا للأب پيار ڤولف (Pierre Wolff) بعنوان: «هل أستطيع أن أُبغض الله؟». لا شكّ أنّ هذا العنوان يصدمنا، لكنّه يعني التنديد حتّى بالله والتعبير عن المشاعر العميقة، حين يشعر الإنسان بأنّه متروك. أمّا الجواب على عنوان الكتاب فهو «نعم»، إن أردنا أن نقتدي بكبار المصلّين في الكتاب المقدّس أو بغيرهم. فكّروا في أنبياء الكتاب المقدّس، وفكّروا في المزامير، وفكّروا في يسوع نفسه وهو على الصليب. «نعم»، لأنّ الحياة الجديدة تنبثق من هذا الصراخ. إنّه، كما قال لوف (Louf)، ذلك الصراخ الذي يرفع الحجر، أو الحجارة، التي تسدّ عين الماء الحيّ، فإذا حُرّرت، استطاعت الحياة أن تتفجّر. إنّه حقًّا

صراخ أعمى أريحا، «يا ابن داود، ارحمني. يا ربّ، اجعلني أُبصر». حاول التلاميذ أن يُسكتوه، لكنّ يسوع قال لهم: «دعوه يأتي إليَّ». دعوه يصرخ. ما أكثر الأشياء التي في أنفسنا والتي تسدّ الطريق، والذين يحاولون أن يُسكتونا ليس هم الآخَرين، بقدر ما هي بالأحرى مخاوفنا وكبرياؤنا، لأنّ الصراخ يعني أن نسلّم بأنّنا نحتاج إلى الآخَر، نحتاج إلى الشفاء، نحتاج إلى الخلاص. لا نستطيع أن نشفي أنفسنا، لا نستطيع من تلقاء ذواتنا أن نخلّص أنفسنا. نردّ كثيرًا لو استطعنا أن نفعل ذلك من تلقاء ذواتنا. لكنّ الله قال: «لا يَحسن أن يكون الإنسان وحده». نحتاج إلى الآخرين، ولا سيّما إلى الآخَر الذي هو الله، لننال الخلاص والشفاء. والصلاة هي التي تستطيع أن تفتحنا على ذلك. وهذا الشفاء لا يمكن أن يأتي إلّا تدريجيًّا، في كثير من الصبر. هناك تطهير لا غنى عنه، والله يطهّر ببطء وفي الصبر. وهو يعاملنا بلطف، وإن بدا لنا أحيانًا أنّه يضرب بعنف. يطهّرنا شيئًا فشيئًا، كما عامل إبراهيم، ولا يُخطئ في عمله. إنّ الأب الذي يحبّ ابنه لا يدلّله: إنّه يعرف كيف يجب عليه أن يحبّ، ولكنّه يعرف أيضًا أن يكونَ حازمًا، يعرف أن يكون لطيفًا وحازمًا. وفي الصلاة نكتشف ذلك. أنا أحترس من الأشخاص الذين، حين يتحدّثون عن الصلاة في الإرشاد الروحيّ، يتحدّثون دائمًا عن إله رؤوف جدًّا، عن إله رحمة، يُفيض الانبساط على الناس حتّى إنّهم لا يعودون يعيشون على هذه الأرض، بل يطيرون ويحلّقون. لا شكّ أنّ الله رؤوف وأنّه يُفيض علينا الانبساط، وإلّا لَما استطعنا أن نثبت ونواصل السير. ولكنّه قد يكون قاسيًا أيضًا، أي متطلّبًا. إقرأوا الإنجيل فيتّضح لكم أنّه متطلّب. إقرأوا إنجيل لوقا، المسمّى إنجيل الرحمة، فيتّضح لكم أنّه إنجيل متطلّب جدًّا. هذا هو الإله الذي نكتشفه: إن صلّينا حقًّا: إله رحمة، لا إله عواطف. يبدو لي اليوم أنّنا نقع في الخلط بين الاثنين. إن كُنّا عاطفيّين، لا نكون رحماء. ولكي نصلّي كما يجب، نحتاج إلى الكثير من الثقة والتواضع والصبر. ولا يمكننا أن نحصل عليها إلّا بنيلها من الله. إنّها عطايا تأتينا من الله.

العيش بحياة الله نفسها

إن حُرِّرت تلك الصلاة، وعين الماء تلك، فهي تجعلنا نعيش بحياة الله نفسها. وعندئذ، نستطيع أن نقول، مع القدّيس بولس: «لا أحيا أنا بعد اليوم، بل المسيح يحيا فيَّ»، ولكن شرطَ أن ندعه يحيا فينا. والصلاة تجعلنا نكتشف الجهاد الروحيّ. وهناك نصّان للقدّيس بولس أرتاح إليهما جدًّا، وهما يتعلّقان بذلك الجهاد الروحيّ: «وحقًّا لا أدري ما أفعل: فالذي أُريده لا أفعله، وأمّا الذي أكرهه فإيّاه أفعل... أجد هذه الشريعة، وهي أنّ الشرّ وحده باستطاعتي». وعندئذ يهتف بولس: «الشكر لله يسوع المسيح ربّنا» (روم ٧/ ١٥ و٢١). وهناك نصّ آخر، يتحدّث فيه عن هذا الصراع: «ومخافة أن أتكبَّر بسموّ المكاشفات، جُعل لي شوكة في جسدي: رسول للشيطان وُكل إليه بأن يلطمني لئلّا أتكبَّر. وسألتُ الله ثلاث مرّات أن يُبعده عنّي. فقال لي: حسبُك نعمتي، فإنّ القدرة تبلغ الكمال في الضعف» (٢ قور ١٢/ ٧-٩). وجد بولس نفسه تجاه اختبار ضعفه: «فمَن يُنقذني؟». من تلقاء ذاتي، لا أتوصّل إلى الإنقاذ، لكنّ الربّ الإله يُنقذني بالمسيح يسوع. فهو الذي يخلّصني ويشفيني: «سألتُ الله ثلاث مرّات أن يُبعده عنّي»، على مثال يسوع في بستان الزيتون. فلا بدّ لي من الصبر والثبات. عليَّ أن أواصل الصلاة، ولكن شرطَ أن أقبل، إن أبقى الله لي هذا الضعف، بأن تكفيني نعمته وأن تظهر قدرته.

إنّ القوّة الوحيدة التي تشفينا والتي تستطيع أن تحرّرنا هي قوّة المحبّة، هي القوّة التي تأتي من الاكتشاف «أنّ الله يُحبّني ويغفر لي»، وأنّه يخلّصنا. ولكن، كيف نستطيع أن نكتشف محبّة الله ومغفرته، إن لم نعترف أوّلًا بأنّنا خاطئون، إن لم نعترف بأنّنا ضعفاء، وبأنّنا غير قادرين على المحبّة وعلى إفساح المجال لتفجُّر حياة الله في أنفسنا؟ وكيف نقوم بهذا الاختبار، إن لم يكن في الصلاة، في تلك العلاقة الشخصيّة التي سبق لنا أن تحدّثنا عنها، وفي الشعور بتلك العلاقة؟ وضع مؤلّف روحانيّ إنكليزيّ معاصر، يُدعى جيرالْد هِيُوز (Gerald Hughes)، كتابًا عنوانه إله المفاجآت، ففي الصلاة يأتي الله على غفلة ويفاجئ. إنّه ذلك الآخَر الذي

يدخل بغتة في حياتنا. وفي الكتاب المقدّس، نرى دائمًا أنّ الله يدخل بغتة في تاريخ البشريّة والأشخاص، وهذا ما ترويه لنا حتّى الأناجيل. فحين كان بطرس وأندراوس يُصلحان شباكهما، وصل يسوع وقال لهما: «إتبعاني»، فتركا كلّ شيء وتبعاه. لقد دخل يسوع في حياتهما، كما أنّه مرَّ بحياة عدّة أشخاص، لكنّهم لم يتبعوه جميعًا. والصلاة تساعدنا على اكتشاف دخول الله بغتة في حياتنا، وتفاجِئُنا في شخص ذلك الذي هو فينا منذ البدء، مع أنّه جديد دائمًا أبدًا ولا ينقطع عن تجديدنا. تلك هي الصلاة. تشهد على ذلك قصّة السامريّة. جاءت إلى البئر ظهرًا لأنّها، في نظري، لم ترد أن تلتقي الآخرين.

صراخ يسوع والسامريّة

لمّا كنت في مصر، كثيرًا ما كنت أزور قرى الصعيد حيث الطبيعة لا تزال تشبه طبيعة فلسطين في أيّام يسوع. هناك تذهب النساء باكرًا إلى العين أو إلى القناة لاستقاء الماء ولغسل الأشياء. يذهبن باكرًا لتجنّب الحرّ وللاشتراك في رواية الأخبار: من زواج وولادة ووفاة وطلاق إلخ، ويكون للنميمة دور كبير. فالتي استمالت قلوب العديد من أزواج نساء القرية لا تلقى ترحيبًا إن أتت إلى البئر في حضور سائر النساء. ولذلك جاءت السامريّة ظهرًا، بالرغم من شدّة الحرّ، وهناك انتظرها يسوع. وهو الذي بادرها بالقول: «إسقيني». في الواقع، هذه الكلمة تعبّر عن أعمق مشاعر السامريّة وعن تعطّشها إلى علاقة حقيقيّة ولقاء حقيقيّ. وبانفتاحها على الذي أمامها وعلى طلبه توصّلت شيئًا فشيئًا من العطش الطبيعيّ إلى العطش الباطنيّ وإلى لقاء عميق. توصّلت إلى حقيقتها العميقة التي تمزّق القلب، لأنّها اتّخذت خمسة أزواج، والذي عندها الآن ليس بزوجها. توصّلت إلى الحقيقة التي تحرّر، ولكنّها لم تسلّم بذلك إلّا بمشقّة. وعندئذ ارتفع عندها صراخ الفرح والانفتاح: «إنّه قال لي كلّ ما فعلتُ». فقد اكتشفت، بقبولها أن تدخل في صميم واقعها، ذلك الإله الذي أثّر فيها وشفاها.

الله يخلقنا خالقين

إن زرتم في رومة كنيسة السِكْستين (Sixtine) لمناسبة اليوبيل، انظروا إلى سقفها، انظروا إلى «خَلْق آدم» للرسّام ميكيل آنج (Michel-Ange)، ترون ذلك الشابّ الذي يمدّ الله يده إليه ويلمسه بإصبعه. يكاد أن يلمسه، ولكن لكي لا يُفلته للأبد. إنّ الله لا يزال يلمسنا بإصبعه، لا يزال يخلقنا. لم يخلقنا الله مرّة واحدة ثمّ تركنا. وفي الصلاة نكتشف ما كتبه الأب ڤاريون (Varillon)، وهو «أنّ الله يخلق خالقين. نحن في جوهرنا خلائق خالقة، لأنّ الله خلقنا نخلق أنفسنا». في الصلاة، نكتشف أنفسنا ونصبح خالقين مع الله، خالقين أنفسنا والعالم. وهذا شيء في غاية الجمال. إنّه يهب لنا هذه الحرّيّة ويحرّرنا لنكون خالقين معه.

القسم الثاني: أهمّيّة الصلاة في الحياة الرهبانيّة بلبنان الحاليّ

١ - الحياة الرهبانيّة

للتحدّث عن أهمّيّة الصلاة التي تحتاج إليها الحياة الرهبانيّة في مواجهة تحدّي لبنان الحاليّ، أريد أن أستهلّ كلامي برسالة بولس السادس إلى الرهبان والراهبات الشهادة الإنجيليّة[٢]، وهي تعالج هذا الموضوع بتوسّع في قسمها الأخير. فإنّ البابا، في كلامه على العودة الروحيّة إلى الينابيع، يقول: «كيف تستطيعون، أيّها الرهبان والراهبات الاعزّاء، أن لا ترغبوا في أن تعرفوا على وجه أفضل ذاك الذي تحبّونه وتريدون أن تُظهروه للبشر؟ به توحّدكم الصلاة. وإن فقدتم الميل إليها، فإنّكم تستعيدون الرغبة فيها بعودتكم إليها بتواضع. لا تنسوا، على كلّ حال، شهادة التاريخ، فهو يعلّمنا أنّ الأمانة للصلاة أو إهمالها هو مِحكّ حيويّة الحياة الرهبانيّة أو انحطاطها» (الرقم ٤٢).

---

(٢) بولس السادس، الشهادة الإنجيليّة، إرشاد رسولي في تجدّد الحياة الرهبانيّة المكيّف، بحسب تعليم المجمع، الڤاتيكان، ١٩٧١/٦/٢٩.

فمنذ هذه الكلمات الأولى، يدلّنا البابا بوضوح على ضرورة الصلاة وأهمّيّتها في الحياة الرهبانيّة. إنّها هامّة لبقائنا متّحدين بذاك الذي نحبّه والذي أحبّنا أوّلًا، ولتحقيق رسالتنا التي هي إظهاره للرجال والنساء في أيّامنا، وأخيرًا للمحافظة على الحيويّة في الحياة الرهبانيّة.

إن كان هناك شخصان يحبّ واحدهما الآخَر ولا يخصّصان وقتًا لتلاقيهما والتعبير عن حبّهما المتبادل، يُخشى أن يضعف هذا الحبّ ويتلاشى. وإذا كانت صلاتنا علاقة بيننا وبين الله، فنحن نحتاج إلى تخصيص وقت لنكون وحدنا معه ونمكّنه أن يكشف لنا محبّته على وجه أعمق يومًا بعد يوم، ولنعبّر له عن محبّتنا وعرفان جميلنا. فإنّ هذه المحبّة وحدها تستطيع أن تُضفي الحيويّة على حياتنا وعلى خدمتنا الرسوليّة.

إنّ الحياة الرهبانيّة هي دعوة ونداء إلى الرسالة. والحال أنّ النداء والرسالة يدلّان على حضور شخص آخَر ينادي ويُرسل. وإن أهملنا الصلاة الشخصيّة والجماعيّة، يُخشى أن نفقد إلى حدّ ما بُعد النداء والرسالة. فكيف يمكننا أن نسمع النداء وكيف يمكننا أن نسمع صوت ذاك الذي يرسلنا، إن لم نتوقّف لنُصغي ونبحث؟ وإن لم نخصّص وقتًا للصلاة ولتعميق علاقتنا بالله الذي يحبّنا وينادينا، كيف يمكننا أن نسير في خطى يسوع الذي يقول لنا: «إتبعوني أجعلكم صيّادي بشر» (مر ١/ ١٧)؟ كيف يمكننا أن نقتدي بالتلاميذ الأوّلين الذين «تركوا الشباك وتبعوه» (مر ١/ ١٨)؟ فهل نستطيع حقًّا أن نكتشف الله الذي يدعونا، إن لم يكن في حياتنا صلاةٌ شخصيّة وجماعيّة وطقسيّة عميقة؟

لا أظنّ أنّ أنطونيوس الكبير قد سمع النداء، بطريق المصادفة، في أثناء القدّاس، عند قراءة الإنجيل. نعرف أنّه تأثّر بالكلمات التي وُجّهت إلى الشابّ الغنيّ: «إذهَبْ وبع أموالك واعطها للفقراء... وتعالَ فاتبعني» (متّى ١٩/ ٢١). لا بدّ أن تكون الإفخارستيّا مركز حياتنا الرهبانيّة كلّها. نتحدّث عن الحياة المكرَّسة ويُطلَق علينا اسم المكرَّسين. ولكن هل يمكننا أن نكون مكرَّسين من دون أن نكون متّحدين بالمسيح؟ ماذا يعني

تكريسنا، إن لم يكن متّحدًا بتكريس المسيح وتقدمته؟ وأين يمكننا أن نكتشف في العمق معنى ذلك على أفضل وجه، إن لم يكن في الإفخارستيّا؟ يدور الكلام، في أثناء القدّاس، على صلاة التكريس: «خذوا فكلوا، هذا هو جسدي يُبذل من أجلكم ومن أجل جماعة الناس. خذوا فاشربوا، هذه هي كأس دمي يراق من أجلكم ومن أجل جماعة الناس». هذا هو التكريس حقًّا، أي أن نقبل بأن تُكسر أجسادنا مع جسد المسيح، وأن يراق دمنا مع دمه لخلاص إخوتنا وأخَواتنا. هناك أشخاص وُهبت لهم نعمة إراقة دمهم في الاستشهاد. ولكن قد يكون من الأصعب أحيانًا أن نقبل بأن يراق دمنا قطرةً قطرةً في حياتنا اليوميّة، لا في بطولة الاستشهاد الباهرة، بل في حياتنا اليوميّة المستترة. فالاتّحاد بالمسيح في الإفخارستيّا يستطيع وحده أن يهب لنا هذه القوّة كفردٍ من الأفراد وكجماعة.

في مرافقة الرهبان والراهبات الروحيّة، كثيرًا ما يقال لنا إنّنا، أمام ذلك القدر الكبير من البؤس والعذاب والعوز، لا يسعنا أن نسمح لأنفسنا بالانصراف إلى الصمت والسكون. هذا وإنّ خدمتنا الرسوليّة هي صلاتنا. على إغراء النزعة النشاطيّة، يجيب بولس السادس: «ألا نرى إحدى مصائب زمننا في عدم التوازن القائم بين ظروف الوجود الجماعيّة ومَطالب التفكير الشخصيّ والتأمُّل؟ لقد كثر عدد الأشخاص، ومن بينهم العديد من الشبّان والشابّات، الذين فقدوا معنى حياتهم فأخذوا يبحثون بقلق عن بُعد كيانهم التأمّليّ، من دون أن يفكّروا في أنّ المسيح قد يستطيع، في كنيسته، أن يلبّي انتظارهم! لا تقلّلوا من أهمّيّة الصلاة العقليّة في حياتكم وتعلّموا أن تجتهدوا فيها بسخاء، فإنّ الأمانة للصلاة اليوميّة تبقى، لكلّ واحد وكلّ واحدة منكم، ضرورة أساسيّة، ولا بدّ أن تحتلّ المرتبة الأولى في قوانينكم التأسيسيّة وفي حياتكم» (الرقم ٤٥).

إذا صحّ أنّ هناك خطر النزعة النشاطيّة، فإنّ هناك خطرًا آخر، وهو خطر النزعة الخصوصيّة، الذي كثيرًا ما نجده في المرافقة الروحيّة: «صلاتي الخاصّة تكفيني! ولست في حاجة إلى تلاوة صلاة الساعات أو

حضور القدّاس الجماعيّ أو الرتب الطقسيّة. فإنّ كلّ ذلك رتيب، لا يتغيّر ولا يتجدّد»، كما لو كانت الصلاة الحقيقيّة تقوم على التنوّع. أوليست حياتنا مكوّنة من أشياء تتكرّر؟ إنّ التجدّد يأتي من الباطن، من القلب. وفيه يجعل الله كلّ شيء جديدًا. ما يتغيّر ليس هو القدّاس في حدّ ذاته، أو النصّ، أو الرتبة، بل قلبنا هو جديد كلّ يوم، ونظرتنا أيضًا. وإن قلنا إنّنا، شخصيًّا وفرديًّا، نصلّي كثيرًا بعيدًا عن الأضواء، ولسنا قادرين على الصلاة مع الكنيسة، مع الجماعة، يُخشى أن نعيش في الأوهام ونقع في النزعة الخصوصيّة أو العاطفيّة، يُخشى أن نقضي وقتنا في أن نجد أنفسنا، لا أن نجد الله.

إنّ حياتنا الرهبانيّة، حياة أكثريّتنا على الأقلّ، هي حياة رسوليّة. نحن مدعوّون إذًا إلى العمل. ولكي نتجنّب في آن واحد خطر النزعة النشاطيّة وخطر النزعة الخصوصيّة والفرديّة، نحتاج إلى أن نصبح مشاهدين ومشاهدات لله في العمل. نحن مدعوّون إلى العمل، ولكنّنا مدعوّون أيضًا إلى أن نميّز من أين يأتي هذا العمل. فهل يأتي حقًّا من الله؟ وهل هو حقًّا تلبية حاجة حقيقيّة وأمسّ حاجة، أم بالأحرى تلبية حاجاتنا الخاصّة؟ إن كانت الصلاة حقيقيّة، فهي تنقلنا إلى العمل، وهو ليس النزعة النشاطيّة. وإن كان عملنا تليةً لنداء اكتشفناه في الصلاة، فهو يردّنا إلى البحث عن النور بالتأمّل في المسيح وبخدمته الرسوليّة. وبذلك تصبح حياتنا الرسوليّة حركة متواصلة بين الصلاة والعمل. فإنّ التأمّل يساعدنا على اكتشاف النداءات في الحياة اليوميّة، كما أنّ قراءة يومنا الجديدة (وهي ما كنّا نسمّيه في الماضي «فحص الضمير») تساعدنا على أن نرى كيف نعيش ونلبّي هذه النداءات.

من دون الصلاة، يُخشى أن يصبح الاختيار اختبارنا، لا تلبية محبّة لنداء من النداءات، وأن تصبح الرسالة خدمة، «خدمتنا»، ولا تلبث أن تتحوّل إلى أملاك خاصّة. فالشباب يصبحون شبابنا، والمرضى مرضانا، والفقراء فقراءنا. من دون الصلاة، لا نتمتّع بالحرّيّة الباطنيّة اللازمة للبحث عن مشيئة الله علينا وعن حلم المحبّة الذي حلمه الله ولا يزال

يحلمه لكلّ واحد وكلّ واحدة منّا. من دون الصلاة، لن نجد، ولا شكّ، قوّة الثبات في الصعوبات التي نواجهها. «مَن أراد أن يتبعني، فليحمل صليبه كلّ يوم ويتبعني». إنّ قوّة محبّة الله التي نجدها في الصلاة، وينبوع الحياة الجديدة الذي تحدّثنا عنه يستطيعان وحدهما أن يهبا لنا قوّة الثبات بالرغم من الصعوبات.

تعني الحياة الرهبانيّة أيضًا الجماعة وبالتالي التقاسم والتعاون. فإنّ الوثيقة التي تبحث في الحياة الرهبانيّة تتحدّث عن التعاون مع العلمانيّين، شرط أن لا يعني هذا التعاون أنّ القرار لنا والتنفيذ لهم، لأنّ التعاون يعني تقاسم المسؤوليّة. ولكن، إن لم نكن قادرين على التعاون وعلى تقاسم المسؤوليّة بيننا، فكيف نقدر عليهما مع العلمانيّين؟ والعذر الذي نجده في أكثر الأحيان هو: «ليس عندهم حتّى الآن الاستعداد اللازم، بل يحتاجون إلى التدريب». عندنا أحيانًا علمانيّون يعملون إلى جانبنا منذ خمسٍ وعشرين سنة و«ليس عندهم حتّى الآن الاستعداد اللازم»؟ إذا صحّ ذلك، فكيف يجب أن نصف عملنا؟ وعلى مَن الحقّ؟ أفلم نَخشَ أن نخسر الحكم والسلطة؟ لا شكّ أنّنا ننسى أنّ الحكم والسلطة في الرسالة يعنيان الخدمة، وبالتالي حكم المحبّة، لا الحكم الذي يفرض نفسه. ورد في يو ١٣/ ١٢-١٣): «أتفهمون ما صنعت إليكم؟ أنتم تدعونني «المعلّم والربّ» وأصبتم في ما تقولون، فهكذا أنا». جرت العادة أن يغسل العبد والخادم أقدام الضيوف، ولا يقوم ربّ البيت بهذا العمل إلّا إن كان الضيوف ذوي شأن. ولم يستغرب بطرس غسل الأقدام في حدّ ذاته، بل كون الربّ نفسه يغسل أقدام تلاميذه، الأمر الذي يدلّ على أنّهم ذوو شأن. وفي الواقع، فإنّهم، في نظر يسوع، ذوو شأن، لأنّه جعل منهم معاونيه وعهد إليهم في القيام برسالته. فهل نحن قادرون على الاقتداء به؟ «أمّا وقد علمتم هذا، فطوبى لكم إذا عملتم به» (يو ١٣/ ١٧).

تعني الحياة المكرّسة العزوبة والفقر الطاعة. ليست العزوبة نقصًا في شيء ما، ورفضًا للزواج. ليست شيئًا سلبيًّا، بل هي إيجاب. إنّها نمط حياة، وحياة حبّ، تختلف عن حياة الزواج، مع أنّ المقصود هو الحبّ.

فهي أن نعيش الحبّ كما عاشه المسيح، لكنّ هذا الحبّ يهب نفسه، من دون أن يحقّ له أن يقول: هذا الشخص هو لي، في حين يحقّ للرجل المتزوّج أو للمرأة المتزوّجة أن يقولا: «هي امرأتي، هو زوجي» هو/هي لي». العازب/العازبة هو/هي للآخرين، ولكن ليس له/لها أحد الآخرين. وهذا ليس أمرًا سهلًا، كما تعلمون جميعًا، لأنّه يفترض العزلة والوحشة. وإن لم نعش هذه العزلة والوحشة مع المسيح، نجد أنفسنا في وضع لا يطاق، فنلتجئ إلى سبل التعويض وإلى ملء الفراغ الذي في حياتنا.

هذا شأن الفقر أيضًا. ليس هو نفي الأموال، بل الاعتراف بأنّ كلّ شيء هو عطيّة من الله، الاعتراف بعناية الله وكرمه. وفي هذه الحال، يعيش الإنسان الذي نذر الفقر تلك الدعوة التي وجّهها يسوع حين أرسل تلاميذه: «لا تقتنوا نقودًا من ذهب ولا من فضّة ولا من نحاس في زنانيركم، ولا مزودًا للطريق ولا قميصين ولا حذاءً ولا عصًا...» (متى ١٠/٩-١٠). لا يجوز أن نثقّل أنفسنا بالأملاك، بل يجب علينا أن نبقى خِفافًا ومتنقّلين من أجل الرسالة. لا أنّ الأشياء هي سيّئة، لكنّ المسيح يذكّرنا قائلًا: «لا يهمّكم للعيش ما تأكلون ولا للجسد ما تلبسون. أليست الحياة أعظم من الطعام، والجسد أعظم من اللباس؟... فهذا كلّه يسعى إليه الوثنيّون، وأبوكم السماويّ يعلم أنّكم تحتاجون إلى هذا كلّه. فاطلبوا أوّلًا ملكوته وبرّه تُزادوا هذا كلّه» (متى ٦/ ٢٥-٢٦ و٣٢-٣٣). تلك هي الشهادة التي دُعينا إلى أن نأتي بها إلى العالم، شهادة الإيمان بالعناية الإلهيّة. إنّها دعوة دائمة توجّه إلينا، دعوة تجعلنا نعترف بكلّ تواضع بأنّ السير على الطريق لا يزال طويلًا. ولا ننسَ أنّ الفقر الحقيقيّ ليس هو ماديًّا فقط، بل هو أيضًا وأوّلًا روحيّ. فإنّ الفقر يعني الاعتراف بأنّنا نحتاج إلى الله في كلّ شيء وبأنّنا ننال منه كلّ شيء. أكرّر أنّ قراءة نهارنا وحياتنا المجدَّدة المتنظمة تساعدنا على أن نبقى أمناء لنذر الفقر.

والطاعة. إنّها النذر الذي يميّزنا عادةً نحن اليسوعيّين، يضاف إليه نذر طاعة خاصّ للبابا من أجل الرسالة، وإن شدَّد إغناطيوس، في

الواقع، على الفقر أيضًا. ولكنّنا، بصفتنا رهبانًا وراهبات، مدعوّون جميعًا إلى أن نعيش الطاعة. وهي ليست نقصًا في الشخصيّة وهربًا من المسؤوليّة. في أيّامنا أسطورة تقول بأنّ صاحب الشخصيّة هو الذي يعرف أن يقول لا للسلطة تثبيتًا لشخصيّته وتنفيذًا لإرادته. ولكنّي، في هذه الحال، أسأل لماذا ترهّبنا. كان الأفضل لنا أن نبقى خارج الرهبانيّة. أمّا إن كنّا مدعوّين إلى اتّباع المسيح، فإنّه يقول لنا: «بالنسبة إليّ، الحياة هي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني». كانت الطاعة لأبيه قوّته، فهل هي لنا أيضًا؟ أم هل نشعر بأنّ الطاعة تخنقنا؟ وهل يمكننا أن نعيش ذلك بدون الصلاة التي تمكّننا من الاتّحاد بالمسيح الطائع؟ إنّ المسيح أيضًا عاش صعوبة الطاعة، وهي صعوبة عرّقته دمًا، فصلّى ثلاث مرّات قائلًا: «يا أبتِ، إن أمكن الأمر، فلتبتعد عنّي هذه الكأس» (متّى ٢٦/ ٣٩). لكنّ الثبات في الصلاة ساعده على ألّا ينسى رسالته وعلى أن يضيف: «ولكن، لا كما أشاء، بل كما أنت تشاء» (متّى ٢٦/ ٣٩). إنتبهوا! ليست الطاعة ضربًا من الدبلوماسيّة: أن يقول الإنسان شيئًا لتجنُّب المتاعب، وأن يعمل بعد ذلك ما يريد، بل هي أن يقصد ويعمل ما هو الأفضل للرسالة. وإن كانت طاعتنا مرتبطة بطاعة المسيح ووجدت فيها معناها، تكون دائمًا «لخلاص العالم»، لتحرير إخوتنا وأخَواتنا. فهل يمكننا في الحقيقة أن ندّعي العمل لتحريرهم، إن لم نكن نحن أحرارًا؟ إنّها فعل محبّة وثقة بالله يمرّ بالطاعة للبشر، بطاعة القلب، حتّى إن كانوا ضعفاء وأخطأوا. فإنّ يسوع نفسه أطاع للبشر، حتّى لمّا كانوا غير عادلين وأخطأوا. وهذا ما يتطلّب منّا كثيرًا من التواضع، الذي يجب أن نستمدّه في الصلاة.

٢ - ما هي تحدّيات لبنان الحاليّ؟

أ - التحدّي الأوّل، ومن الراجح أنّه من أصعبها، هو تحدّي **المصالحة**. فإنّ الأحداث في هذه الأسابيع الأخيرة كشفت لنا بمزيد من الوضوح حاجة لبنان الماسّة إلى عيش هذه المصالحة. ونحن المسيحيّين، ولا سيّما نحن الرهبان والراهبات، لنا دور هامّ يجب علينا أن نقوم به. وأين يمكننا أن نجد هذه القوّة بوجه أفضل، إن لم يكن في سرّ

الإفخارستيّا، سواء كُنّا أفرادًا أم جماعة. وإن تذكّرنا، ونحن نتقرّب من هذا السرّ، ما فعله يسوع ورواه القدّيس يوحنّا في إنجيله، فقد يسهل علينا أن نعيش تلك المصالحة ونحمل الآخرين على عيشها. يحدّثنا القدّيس يوحنّا عن غسل أقدام تلاميذه. وبهذا العمل يذكّرنا أنّنا قد أصبحنا جسدًا واحدًا، فنُعلن وحدتنا في خدمة بعضنا بعضًا، باقتدائنا بالمسيح. عندما يكون الضيوف ذوي شأن، كما ذكرنا سابقًا، كان ربّ البيت يقوم بهذه الخدمة. وهذا ما أراد يسوع أن يفهمه تلاميذُه، ولا سيّما بطرس الذي سيُنكره ويبوذا الذي سيُسلمه: «أنت ذو شأن في نظري!». لم يفهم بطرس عمل المصالحة هذا إلّا في وقت لاحق، في النظرة التي ألقاها يسوع، عندما أنكره. إن كُنّا نستطيع أن ندع يسوع يغسل أقدامنا وأن نفهم ما يصفه إلينا، عندئذ «طوبى لكم إذا عملتم به». وحين كان يسوع يُحكَم عليه ظلمًا ويُلطَم ويُشتَم، في دار عظيم الأحبار، لم يكن يفكّر إلّا ببطرس الذي كان يُنكره. لكنّ بطرس كان يحتاج إلى يسوع، فالتفت يسوع (عمدًا) ونظر إليه وكأنّه يريد أن يقول له: «لا تشغل بالك، فإنّي معك وأحبّك وأغفر لك».

ولكن ما من أحد يستطيع أن يعطي ما ليس عنده. فإن لم نختبر كلّ يوم أنّنا محبوبون ومغفور لنا ومخلَّصون، وإن لم نختبر كلّ يوم أنّنا نحتاج إلى أن نصالَح وأنّنا عاجزون عن ذلك بدون نعمة الله، وهو اختبار تستطيع الصلاة وحدها أن تساعدنا على عيشه، لا يمكننا أبدًا أن نصالح الآخرين، ولا سيّما أولئك الذين جرحناهم في العمق، ولا يمكننا أيضًا أن نساعد الآخرين على مصالحة بعضهم بعضًا. ونحن الذين يملكون عددًا كبيرًا من المؤسّسات ويثقّفون عددًا كبيرًا من الشبّان والشابّات، هل نحن على يقين بأنّنا ندرّبهم على المصالحة؟ ألا يُخشى أحيانًا أن نكون ضحيّة روح الانتقام والبغض، وأن ننقله إليهم؟ في العهد القديم، قال الله لشعبه الذي كان في المنفى، ذلك الشعب الذي خانه وتركه: «قد صرتَ كريمًا في عينيَّ ومجيدًا، فإنّي أحببتُك» (أش ٤٣/ ٤). أنستطيع أن نقول هذا نفسه؟ أوَلا قد نحتاج إلى أن نطلب إلى الله بلا انقطاع، مع القدّيس فرنسيس، أن يجعل منّا أدوات سلام ومصالحة؟

ب - ويبدو لي أنّ التحدّي الثاني هو تحدّي العمل المسكونيّ والمشاركة والحوار. ولكن أيمكن أن يكون هناك حوار حقيقيّ من دون إصغاء، وهل نحن قادرون على الإصغاء، إن لم نتعلّم أن نصمت؟ قلنا إنّ الصلاة تعلّمنا أن نصمت وأن نتبل بالبقاء في الصمت والانقباض، منتظرين بتواضع أن ننال الخلاص والشفاء. أعتقد أنّنا إن أردنا حقًّا أن نتوصّل إلى المشاركة وأن نكون واحدًا كما أنّ يسوع والآب هما واحد، نحتاج إلى أن نتعلّم الإصغاء إلى الآخر في العمق والإصغاء إلى أنفسنا أيضًا في العمق. ولكنّنا نحتاج بوجه خاصّ إلى أن نصغي إلى الربّ الذي يناديا ويدعونا إلى الاهتداء، وإلى التغلّب على مخاوفنا وتحفّظاتنا، وإلى التحرّر من أحكامنا السابقة. نحتاج إلى الاعتراف بعدم إمكاننا أن نتوصّل إلى ذلك وحدنا. ولا يسعنا إلّا أن ننال هذا الاتّحاد من الله، وهو ما لا يحقّق إلّا في الصلاة الفرديّة والجماعيّة، ولا سيّما في سرّ الإفخارستيّا.

ج - إنّ شبّاننا وشابّاتنا بوجه خاصّ، وهم الذين في وضع انهزام، يوجّهون إلينا التحدّي الثالث الذي هو، على ما يبدو لي، تحدّي الرجاء وإعلان القيامة إلى مجتمع يبدو أنّه يسير إلى مستقبل حالك وخالٍ من الأمل: فهناك الأزمة الاقتصاديّة والبطالة والسلام الذي يبدو قريبًا جدًّا ولا يزال يبتعد، والانقسامات المتنوّعة. يُقال لنا إنّ أولئك الشبّان، الذين فقدوا كلّ أمل في الحياة والمستقبل، ينصرفون يومًا بعد يوم إلى الإدمان على المخدّرات والكحول وعلى حياة جنسيّة جامحة خالية من كلّ قاعدة سلوك. إنّنا مدعوّون إلى أن نكون قريبين من الذين يتألّمون، من الذين هم في بؤس ماديّ وروحيّ ونفسيّ، وإلى أن ننقل إليهم الرجاء والثقة في الحياة. إنّنا مدعوّون إلى أن نكون قريبين من أولئك الشبّان والشابّات بوجه خاصّ. وبدلَ أن ندين أخطاءهم، علينا أن نعتبرها صراخات خيبة أمل واستغاثة. ولكن، من دون الصلاة، يُخشى أن نستسلم للإرهاق تحت وطأة هذا العدد الكبير من المشاكل، وأن ندع التشاؤم يتغلّب علينا، أو أن نقع في الوقاحة. فلن نجد القدرة على مواصلة السير وإرشاد الآخرين نحو النور إلّا بالتأمّل في عذاب يسوع وموته وقيامته، وبالمشاركة في سرّ

الإفخارستيّا وفي حياة الكنيسة الطقسيّة.

د - والتحدّي الرابع هو تحدّي المادّيّة والاستهلاكيّة. إنّنا مدعوّون إلى أن نكون في العالم ومن أجل العالم، من دون أن نكون من العالم. لا نستطيع أن نهرب مخافة أن نُفسَد، فإنّنا مدعوّون إلى أن نعيش متجسّدين في العالم، في لبنان الحاليّ، وأن نكون في خدمة لبنان، ولكن لا في أيّة خدمة. بل يجب أن يكون حضورنا في العالم حضورًا نبويًّا، حضورًا يذكّر بأنّ هناك قِيَمًا غير قيمة الاستهلاكيّة. ولكن ألا نعرّض أنفسنا غالبًا لأن نتشرَّب روح هذا المجتمع؟ كثيرًا ما نشكو من أنّ العالم قد أمسى ماديًّا إلى أقصى حدّ، ولكن ألسنا نقاد غالبًا لإغراء البحث عن كلّ ما يقدّمه المجتمع؟ ألا نعرّض أنفسنا غالبًا لتأدية شهادة معاكسة للفقر؟ حينَ نتأمّل إيفاد التلاميذ إلى الرسالة في إنجيل مرقس، نكتشف أنّ يسوع يُرسلهم من دون مال، ومن دون حقائب، ومن دون قميص احتياطيّ. أفليس طلب هذا العدد من الأشياء يدلّ على قلّة أمان شديدة نسعى للتعويض عنها باستلاك هذه الأشياء؟ إنّ الصلاة تساعدنا على اكتشاف ذلك الوهم وتعلّمنا البقاء في قلّة الأمان هذه لنكتشف ذاك الذي هو صخرتنا وملجأنا الحقيقيّ الوحيد.

هـ - أمّا التحدّي الخامس فهو تحدّي الهويّة. كثيرًا ما يُقال لنا إنّ عالمنا هو في أزمة هويّة. لبنان أيضًا ينتمي إلى هذا العالم، ويبدو لي أنّه هو أيضًا يمرّ بأزمة هويّة. بسبب العولمة، نرى أنفسنا مَغزوّين بثقافة نريد أن نقتدي بها ونجعلها ثقافتنا مهما كلّف الأمر، من دون أيّ عقل نقّاد. نحتاج إلى إعادة اكتشاف هويّتنا الحقيقيّة، حتّى في الحياة الرهبانيّة. هناك تجدّد لا بدّ من القيام به، لكنّ التجدّد لا يتمّ مهما كلّف الأمر وعلى حساب الهويّة الخاصّة. لا يعني التجدّد أن نقلّد بغباوة كلّ ما يتمّ في أماكن أخرى، كلّ ما يتمّ في فرنسا وفي الولايات المتّحدة أو في غيرهما. يجب أن يكون عندنا انفتاح، وهذا ما يمرّ أيضًا باكتساب لغة أجنبيّة وبانفتاح على ثقافة أجنبيّة. لكنّ التجدّد والانفتاح لا يعنيان الاغتراب وفقدان الهويّة الخاصّة، بل يعني التجدّدُ تجسّدًا في لبنان الحاليّ، يعني أن

نكون لبنانيّين حقيقيّين. أعترف بأنّي أدهش حين يطلب إليَّ بعض الرهبان أو الراهبات أن أُقيم قدّاسًا لاتينيًّا بالفرنسيّة. ذلك بأنّنا نريد أن نكون فرنسيّين أو إنكليزيّين، أو بالأحرى لا نريد أن نكون ما نحن حقًّا. ويبدو لي أنّ الذين يريدون أن يكونوا أميركيّين أو فرنسيّين ليسوا شبّاننا وشبّاتنا وحدهم، إذ إنّنا نحن أيضًا نجد صعوبة في قبول هويّتنا الحقيقيّة، فنحن أيضًا نتعرّض للوقوع في الاغتراب. ولكنّنا لا نستطيع أبدًا أن نكون غير ما نحن. ولا يمكننا أن نعيش رسالتنا إلّا إن قبلنا، على مثال المسيح، بأن نعيشها في حقيقة زمننا وبلدنا وشعبنا؛ وإن ساعدنا هذا الشعب على التجذّر في هذه الحقيقة وعلى القبول بهويّته بلا تعقيد. ولا نستطيع أن نساعد شبّاننا وشبّاتنا على انفتاح حقيقيّ على ثقافات أخرى وعلى الآخَر، إلّا إن ساعدناهم أوّلًا على أن يكونوا أنفسهم وأن يعيشوا هويّتهم الخاصّة التي تجعلهم أيضًا مختلفين عن الآخَر والتي هي ثمرة ثقافة خاصّة. وإن كانت ممارستنا الصلاة أصيلة، لا يمكن إلّا أن تحملنا على اكتشاف تلك الهويّة، إذ إنّنا، في لقاء الله، نكتشف مَن نحن في الحقيقة.

الخاتمة

أستشهد في الختام بنصّ من البابا عن الحياة المكرَّسة. ففي الإرشاد الرسوليّ الحياة المكرَّسة، نقرأ، بقلم يوحنّا بولس الثاني: «إنّ الشخص المكرَّس، في مختلف الحالات الحياتيّة التي ألهمها الروح القدس في التاريخ، يختبر حقيقة الله التي هي محبّة، بوجه مباشر وعميق بقدر ما يراها تحت صليب المسيح. فإنّ الحياة المكرَّسة تعكس بهاء المحبّة هذا، لأنّها بفضل أمانتها لسرّ الجلجلة، تعلن أنّها تؤمن بمحبّة الآب والابن والروح القدس، وتحيا بها» (الرقم ٢٤).

فلكي نستطيع أن نعكس بهاء المحبّة هذا، علينا أن نقبل بالبقاء، على مثال مريم، عند قدم الصليب، متأمّلين في المسيح، وأن نقبل أن يكون هو الذي يستولي علينا بحبّه ويرسلنا إلى إخوتنا وأخواتنا. ولكن البقاء عند قدم الصليب ليس أمرًا سهلًا.

من دون الصلاة، لا يمكننا أن نعيش الدعوة إلى أن نكون «أيقونة» المسيح الحيّة، ولا نستطيع أن «ننقاد للروح القدس للسير دائمًا في طريق التطهير، لنصبح يومًا بعد يوم أشخاصًا على شكل المسيح، امتدادًا في التاريخ لحضور خاصّ للمسيح القائم من الموت» (الحياة المكرَّسة، الرقم ١٩).

صدر مؤخرًا عن دار المشرق